صحيفة

بشر بن المعتمر

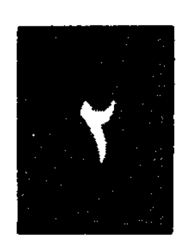
وأثرها في النقد الأدبي





الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

نادي أبها الأدبي
ألوان ثقافية



صحيفة بشر بن المعتمر
وأثرها في النقد الأدبي

الدكتور علي علي مصطفى صبح
الأستاذ المشارك بجامعة الملك سعود
فرع أبها

تصميم الغلاف للفنان

عبد السّلام الشّريف

تمهيد

هذا هو الكتيّب الثاني الذي يصدر في سلسلة ألوان ثقافية والذي راعينا في اختياره أن يحمل فكرة جديدة لقرائنا الأفاضل .

إن كثيراً ممن قرأوا عن صحيفة بشرِ بن المعتمر مثلاً لم يجدوا فيما قرأوا ما يشفي غليلهم من موقف (بشر) وآراء صحيفته التي تعد مصدراً لا يُنسى في النّقد والبيان والدّكتور/ علي صبح الذي أعطى هذا البحث كثيراً من جهده ووقته جدير بأن نثق جميعا في آرائه ونعتمد دراسته تلك كإضافة جديدة في موضوعه . .

بقي أن نؤكد أننا ننشد المساهمة الفعالة في إثراء المكتبة السعودية بأفكار جديدة . .

والله ولي التوفيق

إدارة النادي

صحيفة
بشر بن المعتمر
وأثرها في النقد الأدبي

بشر بن المعتمر :

هو أبو سهل بشر بن المعتمر المتوفى عام ٢١٠ هـ ، من طبقة الكتاب والنقاد والمتكلمين ، عاش في القرن الثاني الهجري ، وعاصر الشاعر أبا تمام [١٧٢ - ٢٣١ هـ] وكذلك الأديب الناقد ابن سلام الجمحي [م ٢٣١ هـ] .

ولد أبو سهل في الكوفة ، ثم تحول عنها إلى البصرة ، واستقر في بغداد ، وطار ذكره فيها ، وتوثقت صلته بالرشيد وبالفضل بن يحيى البرمكي ، ويعد بشر شيخ فرقة البشرية التي سميت باسمه ، تسمو بالعقل ، وتعتد بمقاييسه في جوانب الفكر والكلام ، ومن شعره الذي يذم فيه التقليد :[1] .

---

(١) الحيوان : الجاحظ : تحقيق عبد السلام هارون ٦, ٢٨٦

قـد غمـر التقليـد احـلامـهم
فنـاصبـوا الـقيـاس ذا الـسَّبْـرِ

ويذم إباضية الخوارج ورافضة الشيعة ، الذين يعتقدون ان كتابهم « الجفر » جمع العلوم كلها إلى يوم القيامة : فيقول :

لسـت إبـاضـيـا غـبـيـا ولا
كـرافـضـيٍّ غَـرَّه الـجَـفْـرُ

كـمـا يـغـرُّ الآل فـي سبسب
سَـفْـراً فـأودى عنـده السَّفْـرُ

لسنـا الحشـو الـجفـاة الأولـى
عـابـوا الـذي عـابـوا ولم يـدروا

لا تنجـح الحكمـة فيهم كمـا
يـنبـو عـن الجـرولـة الـقـطْرُ

أولئـك الـداء العضـال الـذي
أعيـا لـديـه الصـاب والمَـقْـرُ(١)

---

(١) الآل : السراب . السبسب الصحراء . السفر : المسافرون . الجرولة : الصخرة الملساء . الصاب والمقر : نباتان حاران

ومن شعره هذا وغيره يظهر لنا أنه شاعر، لكنه في شعره تعليمي ، ومن ذلك قصيدته التي يعتز فيها بالعقل ، ويشيد بمنزلته السامية في الإنسان ، يقول :

لله در العقل من رائد
وصاحب في العسر واليسر

وحاكم يقضي على غائب
قضية الشاهد للأمر

وإن شيئا بعض أفعاله
أن يفصل الخير من الشر

لذو قوى قد خصه ربه
بخالص التقديس والطهر

وله قصائد كثيرة تصور الطبيعة والحياة ، يستدل من خلالهما بعقله على قدرة الخالق المبدع لها سبحانه وتعالى[٢] .

---

(١) الحيوان : ٦, ٢٩٢ .

(٢) الحيوان : ٤, ٢٢٩ ، ٦, ٦٢ ، ٢٨٤ ، ٢٩٩ وغيرها .

وهو بهذا الاتجاه العقلي كان يتصدى لأهل الملل والنحل ، ويحاورهم بالعقل والبرهان ، ليرد الحجة بالدليل العقلي القاطع[1] .

ذكر المرتضى ان له أرجوزة تحمل مذهبه العقلي بلغت أربعين ألف بيت[2] ، والجاحظ يفضل بشرا في الشعر التعليمي على إبان بن عبد الحميد ، فهو أقوى منه ، وخاصة في نظم المخمس والمزدوج[3] . ومنها أرجوزته في تفضيل علي بن أبي طالب على الخوارج يقول فيها :

ما كان في أسلافهم أبو الحسن
ولا ابن عباس ولا أهل السنن

غرٌّ مصابيح الدجى مناجب
أولئك الأعلام لا الأعارب

كمثل حرقوص ومَنْ حرقوص ؟
فقعة قاع حولها قصيص

---

(١) رأي د/ شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ٣,٤٢٧ .
(٢) آمالي المرتضى : ١,١٨٦ .
(٣) الحيوان : ٤,٢٣٩

ليس من الحنـظل يشتار العسـل
ولا من البحور يصطاد الوَرَل[1]

وذكر له الجاحظ قصيدتين طويلتين في موطن آخر بقوله : أول ما نبدأ قبل ذكر الحشرات وأصناف الحيوان والوحش بشعر بشر بن المعتمر ، فإن له في هذا الباب قصيدتين قد جمع فيها كثيراً من هذه الغرائب والفـرائد ، ونبه بهـذا على وجوه كثيـرة من الحكمة العجيبـة والمـوعـظة البليغة . . وإذا قسمنا ما عندنا في هذه الأصناف على بيوت هذين الشعرين وقع ذكرهما مصنفاً ، فيصير حينئذ آنق في الأسماع ، وأشد في الحفظ[2] .

ويذكر فيها طبائع الإنسان وما تأصل فيه من الطمع ، وكذلك طبائع الحيوان والطير ، وما فيهما من غرائب ؛ وعده العلماء والنقاد قديماً وحديثاً من أشهر بلغاء ونقاد القرن الثاني الهجري ، إذ تركت صحيفته المشهورة أثراً واضحاً وكبيراً في

(١) حرقوص من زعماء الخوارج . القصيص : شجر ينبت فيه الفقع تدوسه الإبل الورل: دابة كالضب .
(٢) الحيوان : ٦ , ٢٨٤ وما بعدها .

علماء البلاغة والنقد ؛ ومن ذلك ما ذكره الجاحظ من إشادة إبراهيم السكوني : « مرَّ بشر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكوني الخطيب ، وهو يعلم فتيانهم الخطابة فوقف بشر ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد ، أو ليكون رجلا من النظارة ، فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا ، واطووا عنه كشحا ، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه . . ثم قال بشر : فلما قرئت على إبراهيم قال لي : أنا أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيان »[1] .

ثم يعد الجاحظ بشرا من الطبقة المتميزة عنده ، ذات النبع الثرار الصافي ، وهي طبقة الكتاب في القرن الثاني الهجري ، ومنها أيضاً عبد الحميد الكاتب ، وابن المقفع ، وسهل بن هارون ، والحسن بن سهل ، والفضل بن سهل ، وابن الزيات وغيرهم ، قال الجاحظ : « أما أنا فلم أر قوما قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب ، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ، ولا ساقطاً سوقياً »[2] .

---

(١) البيان والتبيين : الجاحظ : ١,١٣٤ تحقيق عبد السلام هارون

(٢) المرجع السابق : ١,١٣٥

منزلة الصحيفة من الفنون الأدبية :

الأدب شعر ونثر ، ويتنوع النثر الأدبي الى فنون من أهمها الخطبة والرسالة والقصة والأقصوصة ، والمسرحية النثرية وفن السيرة والمقالة بأقسامها المختلفة : وهي المقالة الأدبية ، والمقالة النقدية ، والمقالة الفلسفية ، والمقالة التاريخية ، والمقالة العلمية ، والمقالة الاجتماعية ، والمقالة السياسية ولكل من هذه الأقسام والفنون بناؤه وتركيبه ، وخصائصه الفنية وأغراضه ، وطريقته في المعالجة والكتابة [١]

وتعد هذه الصحيفة لبشر بن المعتمر مقالاً أدبياً في النقد والبلاغة ، إذا أردنا أن نقيسها بمقياس النقد الحديث ، لتطابق الخصائص الفنية فيها ، على ما اصطلح عليه النقد الحديث ، من خصائص المقالة في هذا الجانب المتعدد ، فيشمل المقال في الأدب والنقد والبلاغة ، وبذلك تكون صحيفة بشر مقالة أدبية نقدية ، جمعت بين خصائصهما

---

(١) انظر : دراسات في الأدب العربي الحديث ومذاهبه د/خفاجي ، فن المقالة د/ محمد يوسف نجم ـ أدب المقالة الصحفية في مصر د/ عبد اللطيف حمزة ـ فنون الأدب ترجمة د/ زكي نجيب محمود

معاً ، اي بين خصائص المقال الأدبي وبين خصائص المقال في النقد .

فالمقال الأدبي في النقد لا يحتاج كثيراً إلى الخيال ، لتحلق صوره في كل عبارة فصاحب الصحيفة هنا يحدد معالم الأسلوب الجيد ، وخصائص الأدب الرفيع ، ويضع المنهج في الصياغة الجيدة ، ويحدد الأصول والقواعد في التراكيب ، ويشخص معالم البلاغة في باب « مقتضى الحال » ، وما يتناسب من مقال مع كل مقام ، ومثل هذه الموضوعات لا تحتاج كثيراً الى الخيال بصوره المختلفة من التشبيهات والاستعارات والكنايات ، ومع استغنائه عن الخيال غالباً ، فقد كانت الصحيفة تتفجر قوة ، وتنساب جمالاً ، وذلك في التعبير عن هذه الحقائق في أسلوب قوي ، وتركيب محكم ، ونظم بديع ، لا قلق فيه ولا اضطراب ، فصارت قطعة أدبية رائعة ، تشد انتباه السامع ، وتأخذ بعقله وقلبه .

وليس من الضروري أن يعتمد التصوير الأدبي في كل الحالات على وسائل البيان السابقة ، فقد تخلو الصورة من الألوان البيانية ، وتعتمد على دعائم أخرى ، تقوم عليها

الصورة ، مثل انتقاء الألفاظ ، وسلكها في نظم دقيق ، يتوخى فيه الأديب معاني النحو ، من تقديم وتأخير ، وتنكير وتعريف ، وغير ذلك مما ورد في علم المعاني وموافقة الصورة لمقتضى الحال ، وهذه الدعائم هي التي اعتمد عليها بشر في التصوير الأدبي لهذا المقال النقدي البلاغي .

ومع ذلك لم يخل كلام بشر من ألوان الخيال البياني : مثل : خذ من نفسك ساعة نشاطك ـ واعلم ان ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول ـ فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ـ والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ـ ويشين الفاظك ـ والمعنى ليس يشرف وكذلك ليس يتصنع ـ أن تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطة ـ التي لا تلطف عن الدهماء ، ولا تجفو عن الاكفاء . . وغيرها من الصور البيانية التقليدية في الأسلوب الذي اشتمل على المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية والتجريد .

وان كنت أرى أن هذه الصور البيانية صور لم يقصد بها الكاتب التصوير الخيالي كعادة الشعراء والأدباء ، وإنما كان يقصد الحقيقة ، والكشف عنها بأسلوب دقيق يشد انتباه النفس ، ويثير كوامن الشعور ، ليكون من باب الإيقاظ

والاندماج مع القارىء ؛ ومن ناحية أخرى أن هذه الصور من لوازم التعبير ، بحيث لا يستطيع بشر أن يتخلى عنها ، فقد جاءت منساقة مع الفكرة ، ومتجاوبة مع التعبير ، وضرورية في تصوير الحقيقة ، فهي لا بديل لها في إقامة هذا البناء الفني في منهج المقال النقدي والبلاغي ؛ ولهذا المنهج الفني عرض بشر الحقائق عرضاً دقيقاً يقوم على تنظيم الفكرة ، وتوزيعها توزيعاً منسقاً مثل قوله : وكن في ثلاث منازل .. ثم يقول : فالمنزلة الأولى ... فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك . فإذا انتهى من المنزلة الثانية قال : فإن تمنع عليك بعد ذلك فالمنزلة الثالثة إلى غير ذلك .

ولكي يقنع القارىء يدعم رأيه بالدليل ، فرأى ان للمتكلمين ألفاظاً واصطلاحات لا بد من رعايتها في الكلام فقال : « إذا كانوا لتلك العبارات أفهم ، وإلى تلك الألفاظ أميل ، وإليها أحن ... » وغير ذلك كثير في صحيفته .

هذه المقومات في صحيفة بشر يجعلها متميزة في اتجاهها الفني ، وذلك بالخصائص والسمات التي اصطلح عليها النقد الحديث للمقال الأدبي في النقد والبلاغة ، وقد

اتضحت خصائصه وهي : بناؤه على فكرة واضحة ، وترابط بين اجزائها ، والتدليل عليهـا ، والإقناع بـأدلة من ذات الأسلوب مرة ، وعقلية ثانية ، وتمثيلية تطبيقية ثالثة ؛ وكذلك البناء التركيبي في الصحيفة يعتمد على اختيار اللفظ ، الذي يفصح عن معناه بدقة ، حتى في الألفاظ البيانية السابقة ، التي انسابت مع التعبير ، ثم انتقاء الأساليب التي تعبر عن الحقيقة بوضوح سافر ، وجلاء كاشف ، وكذلك لم تسيـطر العاطفة على بشر ، ولم تظهر مشاعره فيها ، لأن العاطفة والمشاعر الذاتية تـطغى على الحقيقة ، وتستهلك منهـج الإقناع العقلي والواقعي في مجالَي علمَي النقد والبلاغة ؛ ولذلك ظهرت الصور البيانية فاترة من الشعور ، وخلواً من العاطفة الجياشة ، التي تلبد سماء الحقيقة بالغيوم ، فيذهب العقل فيها كل مذهب ، لكن بشراً يقصد من وراء الصحيفة مذهباً واحداً فقط لا كل مذهب .

ومع هذه القيم الفنية للصحيفة ، فهو مقال أدبي ايضاً في النقـد والبلاغـة لأنه خـلا من المنهج الفني للمقـال العلمي ، الـذي يقوم على الاحصـائيات والأرقـام وسوق الفروض والمقدمات صريحة لاستنتاج البرهان ، وغيرها مما تجردت عنه الصحيفة ، وبذلـك دخلت في باب المقـال الأدبي ، الذي يتضمن النقد والبلاغة .

وإذا تأملنا موضوع الصحيفة وانسجام الأفكار والمعاني فيها ، وجدنا أن الفكرة في موضوعها تشد الفكرة ، والمعنى يتفجر من المعنى ، وجميع الأفكار والمعاني تسير في اتساق وانسجام ، وتتقدم في تآلف ومؤاخاة ، متآزرة في الكشف عن موضوع الصحيفة ، وهو بلاغة الأدب وروعته ، ولذلك تحدث بشر عن الصدق العاطفي ثم عن المشاعر الحارة والإحساس الدقيق ، ثم عرض خصائص الأدب الرفيع ، مما اقتضى ان يوضح مراتب الأدب ، وهي الأدب الجيد ، والرديء ، والوسط ، وكذلك مراتب الأديب تبعا لمراتب الأدب ، ثم كان ختام حديثه عن مقتضى الحال ، ليكون كالحكم على ما سبق بالجودة أو غيرها ، فإن تحقق ما يقتضيه الحال فهو الأدب الجيد وإن خلا من ذلك فهو الأدب الوسط أو الرديء .

* * * * *

مجال التأثير والتأثر
في التراث النقدي :

يعد بشر في نظرنا أول ناقد كتب في بعض قضايا النقد العربي القديم في صحيفته المشهورة ، لأنه توفي عام [٢١٠ هـ] ، وكان يعاصر صاحب أول كتاب في تاريخ الأدب والنقد لابن سلام الجمحي المتـوفى [٢٣١ هـ] وكانت نقداته في كتابه « طبقات الشعراء » نظرات عامة ، وكل النقاد الذين دونوا نقداتهم أتوا بعد بشر في عصر التدوين ، وظهر انتاجهم النقدي بعد صحيفته التي اشار فيها أبو سهل إلى قيم نقدية ، ونظرات واضحة في بعض قضايا النقد الأساسية ، ثم تأثر النقاد الذين جاؤ وا بعده به تأثراً كبيراً وخطيراً ، وترسموا خطاه ، وإن تميز بعضهم في بعض الجوانب دون البعض بالأطناب والتخصص والتفصيل .

وأما وصية أبي تمام لتلميذه البحتري الذي عاش ما بين [١٧٢ - ٢٣١ هـ] فإنني أخرجها عن مجال التـأثر والتأثير ، لأن بشراً كان يعاصر أبا تمام، يتجاوبان معا في

تيارات الحركة الأدبية والنقدية في هذا العصر ، وهما إن كانا متفقين معا في بعض الآراء ، فلا نستطيع بحال ، ان نجزم بمن سبق الآخر في رأيه ، ولم أقف على دليل يعين السابق منهما في هذا الرأي ، والأقرب الى الانصاف ان نقول : بأن العصر الذي جمعهما يحمل طابعاً في النقد الأدبي ، هو من سمات ذلك العصر ، وبشر وأبو تمام من الذين كان لهم دور كبير في هذا البناء النقدي لعصرهم .

ومن هذا المنطلق نقول : إن وصية أبي تمام لتلميذه لم تخضع لمجال التأثر والتأثير ، الذي يهز كيان بشر في صحيفته ، حتى لا نقول بأن بشراً متأثر بالوصية ، ويؤيد رأيي هذا أن شخصية كل منهما متميزة في التعبير عما يقول الآخر ، ويظهر ذلك جيداً حينما أعرض الوصية ، ثم ما يتفق معها في الاتجاه من صحيفة بشر .

جاء في وصية أبي تمام لتلميذه : « يا أبا عبادة تخير الأوقات وأنت قليل الهموم صفر من الغموم ، وأعلم أن العادة في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو ضبطه في وقت السحر ، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم . . وإذا عارضك الضجر ، فأرح

نفسك ، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب »[1] .

أما قول بشر : « خذ من نفسك ساعة نشاطك ، وفراغ بالك ، وإجابتها إياك ، فإن قليل تلك الساعة ، أكرم جوهراً ، وأشرف نسباً ، وأحسن في الأسماع ، وأحلى في الصدور ، وأسلم من فاحش القول ، وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ، ومعنى بديع ، واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة ، وبالتكلف والمعاودة »[2] .

والفرق بينهما كبير ، وهما في عصر واحد ، فأبو تمام في وصيته أديب شاعر وبشر في صحيفته أديب ناقد ، وكل منهما يعبر عن رأيه وشخصه في هذا الجانب وليس ببعيد أن يتلقى كل منهما رأي الآخر ، ولا يتهمه بالتأثر ، لانهما يعيشان معا في جو أدبي وفكري وثقافي واحد .

وأما ابن سلام الجمحي فله اتجاه في تاريخ الأدب العربي ونظرات في النقد تختلف عن اتجاه بشر في

---

(١) العمدة : ابن رشيق ٢, ١١٤ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .
(٢) البيان والتبيين : الجاحظ ١, ١٣٤ .

صحيفته ، وإن اتفقا في بعض الوجوه ، فذلك أيضاً خارج عن مجال التأثر والتأثير ، لانهما يعيشان معا في جو أدبي وفكري وثقافي واحد ايضاً .

لأن مجال التأثر والتأثير الدقيق يكـون في عصرين أحدهما سابق والآخر لاحق ، ولا مجال للحاضر والمعاصر ، وبشر وابن سلام وأبو تمام كانوا جميعا يعيشون في عصر واحد . فمجـال الصحيفة في التأثير والتأثر كان له دور كبير في العصور اللاحقة في البلاغة والنقد ، وعند الأدباء والنقاد وعلماء البلاغة ، وسنوضح هذا المجال في التأثير عندما نتحدث عن القضايا النقدية التي أثارها بشر في صحيفته .

القريحة والاكتساب :

يعـد بشر أول نـاقد كتب في النقـد عن المـوهبـة والاكتساب والطبع والصنعة في صحيفته ، فقد ميز بين الأدب الذي خرج عن طبع وسليقة وبين الأدب الذي صدر عن تعب وجهد ، وتأمل وصنعة ، فالأدب المطبـوع يكون صـاحبه

ملهما ، فإذا ما أراد موضوعاً تزاحمت عليه المعاني ، وتفتحت موهبته عن مخزونها من افكار وخواطر ، وانقادت له الألفاظ ، وتلاحقت على لسانه الكلمات ، وانصاعت له الأساليب ، وكان عليه أن يتجاوب مع طبعه ، فيكتب عن طبع بلا جهد ولا معاناة وينساب مع موضوعه بلا تأمل ولا ضجر ، وهذا ما أطلق عليه النقاد فيما بعد « أدب الطبع » فمصدره القريحة الصافية ، والطبع الأصيل ، والاكتساب يأتي بعد ذلك تبعا لا أصلاً .

أما الأدب المصنوع فلا يخلو من الموهبة أولاً ، لكن صاحبه يعاني أثناء الكتابة والصياغة جهداً شاقاً ، ووقتاً مضنياً ، يفتّش فيه بين جوانب نفسه ليصطاد الخواطر التي تنسجم مع موضوعه ، ويبحث خارج ذاته عن أفكار وأساليب وصور ، وربما يترك الكتابة وقتاً ، ليستعين عليها بوقت آخر ، يعاني فيه من المعاودة والتكرار ، والتهذيب والصقل والمتابعة ، حتى يكتب في النهاية ، ويصدر عن صنعة في أدب مصقول مهذب ، كان الاكتساب فيه اظهر واقوى من الطبع والقريحة. أما من لا طبع له ، ولا موهبة قادرة على الاكتساب والتهذيب ، فالأولى له أن ينصرف عن الأدب إلى صناعة أخرى ، تتجاوب معه ، وهذا ما أشار إليه بشر في صحيفته :

« كن في إحدى ثلاث منازل ، فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقاً وفخماً سهلاً ويكون معناك ظاهرا مكشوفاً وقريباً معروفاً . . فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ، ولا تسمح لك عند أول نظرك في اول تكلفك . . فإن أنت ابتليت بأن تتكلف القول وتتعاطى الصنعة ، ولم تسمح لك الطباع ، فلا تعجل ولا تضجر ، ودعه بياض يومك أو سواد ليلك ، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك ، فإنك لا تعدم الاجابة والمواتاة : **إن كانت هناك طبيعة أو جريت من الصناعة على عرق** . . . فإن تمنع عليك . . . فالمنزلة الثالثة أن تتحول عن هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك »[1] .

ثم يتناول ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ [م ٢٥٥ هـ] الطبع والصنعة بصورة أوسع وأعمق متأثراً بما سبق من كلام بشر ، فيرى أن المعاني مشتركة لكن تميز الأديب يرجع إلى صحة الطبع في الصياغة والتصوير يقول : « والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي ، والبدوي والقروي . . . وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ ،

(١) البيان والتبيين : الجاحظ ١٣٥,١ .

وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك ، فإنما الشعر صياغة ، وضرب من التصوير »[1] .

ويقول الجاحظ في الطبع والإلهام عندما تحدث عن الخطابة عند العرب : فكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا إحالة فكرة ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام . . فتأتيه المعاني أرسالاً وتنثال عليه الألفاظ انثيالا »[2] .

ثم يتحدث الجاحظ عن الصنعة في الأدب لأنه يعرف أن : « من شعراء العرب من كان يدع العقيدة تمكث عنده حولا كريتا [كاملا] ، وزمنا طويلاً ، يردد فيها نظره ، ويقلب فيها رأيه اتهاماً لعقله ، وتتبعاً على نفسه ، فيجعل عقله ذماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، إشفاقاً على أدبه ، وإحرازاً لما خوله الله من نعمته ، وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات ، والمنقحات والمحكمات »[3] .

---

(١) الحيوان ٣ / ٤٠

(٢) البيان والتبيين : ٢/١٥

(٣) المرجع السابق : ٢/٢١ .

وأما ابن قتيبة [م ٢٧٦ هـ] فيصف الشاعر المطبوع بـأنـه إذا امتحن لم يتلعثم . . ومن الشعـــراء المتكلف والمطبوع ، فالمتكلف هو الذي قوّم شعره بالثقاف ، ونقحه بطول التفتيش وأعاد فيه النظر ، كزهير والحطيئة ، وكان الأصمعي يقول : زهير والحطيئة وأمثالهما من الشعراء عبيد الشعـــر ، لأنهم نقحـــوه ، ولم يـــذهبـــوا فيـــه مـــذهب المطبوعين »(1) والمقصود بالمتكلف عنده هو المصنوع لأن المتكلف ساقط من باب الأدب الجيد جملة .

ويوضح ابن قتيبة الطبع اكثر حين يقول : والشعراء بالطبع مختلفون فمنهم من يسهل عليه المديح ويتعذر عليه الهجاء . . فهذا ذو الرمة أحسن الناس تشبيباً ، واجودهم تشبيها ، واوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة وماء وقراد وحية ، فإذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع وذلك الذي أخرّه عن الفحول »(2) .

والذي يدل على أن المتكلف عنده هو أدب الصنعة قوله : « والمتكلف وإن كان جيد الشعر محكمه فليس فيه

(١) الشعر والشعراء : ٨:١٢

(٢) المرجع السّابق : ١٤ .

خفاء على ذوي العلوم ، لتبينهم ما نزل بصاحبه فيه : من طول التفكر ، وشدة العناء .. بأن ترى البيت مقروناً بغير جاره ، ومضموماً إلى غير لفقه ... والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر ، واقتدر على القوافي ، واراك في صدر البيت عجزه ، وفي فاتحته قافيته ، وتبينت على شعره رونق الطبع ، ووشي الغريزة »[1] .

ويوضح المرزوقي [م ٤٢١ هـ] المطبوع والمصنوع أيضاً فيقول : « متى رفض التكلف والتعمل ، وخلى الطبع المهذب بالرواية ، المدرب في الدراسة لاختياره .. أدى من لطافة المعنى وحلاوة اللفظ ما يكون صفواً بلا كدر ، عفوا بلا جهد ، وذلك هو الذي يسمى : المطبوع ، ومتى جعل زمام الاختيار التعمل والتكلف عاد الطبع مستخدماً متملكاً ، واقبلت الأفكار تستحمله أثقالها .. مطالبة له بالاغراب في الصنعة ... وذلك هو المصنوع »[2] .

ويرى ابو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني [م ٣٩٢ هـ] أن الشعر يعتمد أول ما يعتمد على الطبع ، لأن

---

(١) الشعر والشعراء : ١٢

(٢) شرح ديوان الحماسة : ١٢ .

الشعراء يتفاوتون في شعرهم بالطبع ، ثم يعين الطبع أموراً أخرى كالرواية والذكاء والدربة يقول : « إن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له ، وقوة لكل واحد من أسبابه »(١) .

ويوضح التصنع ليفرق بينه وبين المطبوع فيقول : « إن رام أحدهم الاغراب لم يتمكن من بعض ما يرومه إلا بأشد تكلف ، وأتم تصنع ، ومع التكلف المقت ، وللنفس عن التصنع نفرة ، وفي مفارقة الطبع قلة حلاوة ، وذهاب الرونق ، وإخلاق الديباجة ، وربما كان ذلك سبباً لطمس المحاسن فصار هذا الجنس إذا قرع السمع لم يصل إلى القلب ، إلا بعد إتعاب الفكر، وكد الخاطر ، والحمل على القريحة . . وهذه جريرة التكلف »(٢) .

ويفصل ابن رشيق بين المطبوع والمصنوع فيقول : [م ٤٦٣ هـ] « ومن الشعر مطبوع ومصنوع ، فالمطبوع هو الأصل الذي وضع أولاً ، وعليه المدار ، والمصنوع وإن وقع

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه : ٢١ .
(٢) المرجع السابق : ٢٤ .

عليه هذا الاسم ، فليس متكلفاً تكلف أشعار المولدين »[1]

ثم يقرر ذلك ابن الاثير [م ٦٢٧ هـ] فيقول : « اعلم أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر إلى الآت كثيرة . . . وملاك هذه كله الطبع فإنه لا تغني تلك الآلات شيئاً ، ومثال ذلك كمثل النار الكامنة في الزناد والحديدة التي يقدح بها ألا ترى أنه إذا لم يكن في الزناد نار ، لا تفيد تلك الحديدة شيئاً »[2] .

وغيرهم من النقاد وعلماء البلاغة كثيرون ، الذين تأثروا بصحيفة بشر في حديثه عن الطبع والصنعة مثل أبو هلال العسكري [م ٣٩٥ هـ] وابن طباطبا [م ٣٢٢ هـ] والآمدي (م ٣٧٠ هـ] .

* * * *

(١) العمدة : ٨٢/١

(٢) المثل السائر : ص ٣ .

منزلة العاطفة من الأدب :

العاطفة القوية الصادقة هي التي تجعل الأدب قوياً والشعر نابضاً بالحياة ، فهي من النص الأدبي بمنزلة الروح من الجسد ، فيها يسمو الأدب ويخلد الشعر ، ولذلك تنبه لها النقاد القدامى ، وأشادوا بمنزلتها من الأدب ، وتحدثوا عن مصادرها القوية ، ومنابعها المتدفقة ، وأوارها المتأجج ، فاختاروا لهـا أنسب الأوقات وأصفـاها ، وأجمـل الأماكن واهـدأها ، ووضـح أبو سهـل في صحيفته وقت احتـدام العاطفة ، ومنطلق صدقها وحرارتها ، ومنزلتها من الأدب ، حين تبعث فيه القوة والحياة قال بشر : « خذ من نفسك ساعة نشاطك ، وفراغ بالك ، وإجابتها إياك ، فـإن قليل تلك الساعة اكرم جوهراً ، واشرف نسباً ، وأحسن في الأسماع ، وأحلى في الصدور ، وأسلم من فاحش القول ، وأجلب لكل عين وغرة[1] ، من لفظ شريف ، ومعنى بديع ، واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكـد والمطاولة والمجاهدة ، وبالتكلف والمعاودة »[2] .

---

(١) اجلب : اكثر طلبا ، عين : نفيس ، وغرة : حرارة وتوقد ، أشرف نسبا: احسن اختياراً للألفاظ . اكرم جوهراً اكثر معرفة بفصاحة الكرم .

(٢) البيان والتبيين : الجاحظ ١/ ١٣٤ .

ينبغي على الأديب أن ينتقي أنسب الأوقات لكتابة الأدب أو إنشاد الشعر أو القاء الخطب ، ويمتنع عن الكتابة في وقت فتور العقل، وخمود البدن ، وتبلد الإحساس وامتلاء المعدة ، فكما قالوا : إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة . وإنما يكتب الأديب أثناء النشاط في البدن ، واليقظة في العقل ، والحركة في الذهن ، وانفعال المشاعر ، ورقة الأحاسيس ، لتكون العاطفة صادقة ، والخيال خصبا، فتتمكن منه الألفاظ الكريمة ، والكلمات الفصيحة ، والنظم البليغ ، والتراكيب القوية ، والمعاني البديعة ، والأفكار المبتكرة ، فإن مثل هذه الفترة ، مهما كانت وجيزة فهي أفضل من أيام خفتت فيها العاطفة الصادقة ، حين يعاني منها الأديب أثناء الصياغة من آلام الكد والمطاولة ومتاعب الجهد والمحاولة .

فالعاطفة الصادقة هي التي تؤجج في الأدب شعوراً متدفقاً ، وإحساساً عميقاً ، ونشاطاً فكرياً وذهنياً ، فينبض الأدب بالحياة ، والحياة فيه هي الصدق العاطفي والفني ، فيرتفع إلى سمو الغرض ، وشرف الهدف ، ووضوح المعنى ، وينقاد اللفظ خفيفاً سهلاً على اللسان ، ويجري رقيقاً عذباً ، كالماء العذب الرقيق ، والينبوع الثرّ الصافي .

وحرارة العاطفة لا تزج بالأديب في دروب الخطأ، ومنحيات التيه ، لأن العقل يوجهها ويسدد خطاها ، وينظم شراراتها ، فلا تهبط في الشعاب المتوعرة ، أو تنزل في مخانق التعقيد ، الذي يلف المعنى في ضباب كثيف ، أو يدرج الغرض في أثواب قاتمة ، فيكون الأديب في أسلوبه الذي اختفى فيه المعنى ، أسوأ حالاً قبل أن يكشف عنه .

وأبو تمام الذي عاصر بشراً تحدث عن وقت نشاط العاطفة ، وعن مصدر القوة والصدق في الأدب بما وصّى به تلميذه البحتري : يا أبا عبادة تخير الأوقات وأنت قليل الهموم ، صفر من الغموم ، وأعلم أن العادة في الاوقات أن يقصد الانسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر . . فاذا عارضك الضجر ، فارح نفسك ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب .

وسار ابن قتيبة على نهج بشر ، متأثراً به في حديثه عن العاطفة ، ووقتها وصدقها قال : « وللشعر أوقات يسرع أتيه[1] ، ويسمح فيها أبيه ، منها أول الليل قبل تغشي

---

(١) أتيه : سبك .

الكرى ، ومنها صدر النهار قبل الغداء ، ومنها يوم شرب الدواء ، ومنها الخلوة في المجلس وفي المسير ، ولهذه العلل تختلف اشعار الشاعر ورسائل المترسل »[1]. ويسير ابو هلال العسكري [م ٣٩٥ هـ] في هذا الطريق الذي بدأه بشر ، فيذكر الأديب بالكف عن الأدب إذا شعر بفتور أو ملل ، ويحثه على العمل يقول فاعمل : « ما دمت في شباب نشاطك ، فإذا غشيك الفتور ، وتخونك الملال ، فأمسك ، فإن الكثير مع الملال قليل ، والنفيس مع الضجر خسيس ، والخواطر كالينابيع ، يسقى منها شيء بعد شيء ، فتجد حاجتك من الري ، وتنال أربك من المنفعة فإذا اكثرت عليها نضب ماؤها ، وقل عنك غناؤها »[2] .

وغيرهم من النقاد الذين تأثروا بالصحيفة مثل الآمدي[3] ، والقاضي الجرجاني[4] ، وعبد القاهر الجرجامي[5] .

* * * * *

---

(١) الشعر والشعراء : ٩ .

(٢) الصناعتين : ١٢٨ .

(٣) الموازنة : ص ١٧٣ وما بعدها .

(٤) الوساطة : ٣٦٠ .

(٥) دلائل الاعجاز : ٨٨

الوزن والقافية :

وتحدث بشر عن قوة الوزن والقافية ، وتناسبهما ، وحسن موقعهما بين الألفاظ ، وتلاحم المعاني في الأبيات ، يقول بعد أن تحدث جودة الألفاظ : « والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها ، ولم تصل بشكلها ، وكانت قلقة في مكانها نافرة عن موضعها ، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن ، والنزول في غير اوطانها ، فإنك اذا لم تتعاطى قرض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بترك ذلك أحد ، وإن أنت تكلفتها ، ولم تكن حاذقاً مطبوعاً . . عابك من أنت أقل عيباً منك »[1] .

ويتأثر أبو هلال بما ذكره بشر عن الوزن والقافية ، فيقول أبو هلال : « وإن أردت أن تعمل شعراً ، فأحضر المعاني التي تريد نظمها فكرك ، وأخطرها على قلبك واطلب لها وزناً ، يتأتى فيه إيرادها ، وقافية يحتملها ، فمن المعاني ما تتمكن من نظمه في قافية ، ولا تتمكن منه في أخرى ، أو تكون في هذه أقرب طريقاً ، وأيسر كلفة منه في

---

(١) البيان والتبيين : الجاحظ ١, ١٣٥ .

تلك ، واذا عملت قصيدة فهذبها ونقحها بإلقاء ما غث من أبياتها ، ورث ورذل والاقتصار على ما حسن وفخم ، بإبدال حرف منها بآخر أجود منه ، حتى تُسوّى أجزاءها ، وتتضارع هواديها وأعجازها »(١) .

ويذكر ذلك أيضاً ابن رشيق فيقول : « ومنهم من يحكم القافية في انتاجه ، فينصب قافية بعينها لبيت بعينه من الشعر ، مثل ان تكون ثالثة او رابعة أو نحو ذلك لا يعدو بها ذلك الموضع ، إلا أن انحل عنه نظم أبياته ، وذلك عيب في الصنعة شديد ونقص بيّن ، لأنه أعنى الشاعر بصير على شيء واحد بعينه ، مضيقاً عليه ، وداخلاً تحت حكم القافية ، وكانوا يقولون : ليكن الشعر تحت حكمك ، ولا تكن تحت حكمه . . . ومنهم من إذا أخذ في صنعة الشعر كتب عن القوافي ما يصلح لذلك الوزن الذي هو فيه ، ثم أخذ مستعملها وشريفها وما ساعد معانيه وما وافقها ، واطرح ما سوى ذلك ، إلا أنه لا بد أن يجمعها ، ليكرر فيها نظره ، ويعيد عليها تخيره في حين العمل ، هذا الذي عليه حذاق القوم . . . ومن الشعراء من إذا جاءه البيت عفوا أثبته ثم

(١) الصناعتين : ١٣٣ .

رجع إليه فنقحه ، وصفاه من كدره ، وذلك أسرع له ، وأخف عليه ، وأصح لنظره ، وأرخى لباله ، وآخر لا يثبت البيت إلا بعد إحكامه في نفسه ، وتثقيفه من جميع جهاته ، وذلك أشرف للهمة ، وأدل على القدرة . . والصواب ألا يصنع الشاعر بيتاً لا يعرف قافيته،غير أني لا أجد في ذلك طبعي جملة ، ولا أقدر عليه بل أصنع القسيم الأول على ما أريده ، ثم التمس في نفسي ما يليق به من القوافي بعد ذلك ، فأبني عليه القسيم ، أفعل ذلك ، كما يفعل من يبني البيت كله على القافية ، ولم أر ذلك بمخلٍ عليّ ، ولا يزيحني عن مرادي ، ولا يغير عليّ شيئاً من لفظ القسيم الأول إلا في الندرة ، التي لا يعتد بها أو على جهة التنقيح المفرط »[1] .

وصاحب الصحيفة أول ناقد تحدث عن القافية والوزن في ميزان النقد الأدبي ، ثم جاء النقاد بعده لينظروا فيها نظرة نقدية تقوم على التحليل والتعليل حيناً ، وعلى تجربة الناقد نفسه في الشعر حيناً آخر كابن رشيق في عمدته .

* * *

---

(١) العمدة : ابن رشيق ١٤٠ ، ١٤١ .

منازل الأديب ومراتب الأدب :

الأدب موهبة وفن وصنعة ماهرة ، لا يستطيع كل من مالت إليه نفسه أن يكون أديباً ، فقد أجمع النقاد على أن الأديب يوجد ومعه الموهبة ، التي تعينه على إجادة هذا الفن ، ومن لم توجد معه هذه الموهبة فعليه ان ينصرف إلى صنعة أخرى ، تتناسب مع ميله وطبعه ، وهذا ما قرره بشر أول النقاد ، حين حدد منازل الأديب من الأدب ، فجعل في المنزلة الأولى الأديب الموهوب ذا القريحة الملهمة ، ليصدر عن أدب رفيع جيد ، وفي المنزلة الثانية الأديب ، الذي يعاني في أدبه من الكد والمطاولة ، فيكون أدبه وسطاً ، وفي المنزلة الدانية وهي الثالثة ، ينتج صاحبها كلاماً مهلهلاً متكلفاً ، وهو الأدب الرديء ، يقول بشر :[1] .

« كن في إحدى ثلاث منازل ، فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقاً عذباً ، وفخماً سهلاً ، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً ، وقريباً معروفاً ، . . . فإن كانت المنزلة

---

(١) البيان والتبيين : الجاحظ ١٣٤,١ ، العمدة : ابن رشيق ١٤٢,١ .

الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ، ولا تسمح لك عند أول نظرك في أول تكلفك ، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ، ولم تصل إلى قرارها ، وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها . . فإن أنت تكلفتها ، ولم تكن حاذقاً مطبوعاً ، ولا محكماً لشأنك ، بصيراً بما عليك ولك ، عابك من أنت أقل منه عيباً ، ورأى من هو دونك أنه فوقـك ، فإذا أنت ابتليت بـأن تتكلف القول ، وتتعاطى الصنعة ، ولم تسمح الطباع فلا تعجل ، ولا تضجر ، ودعه بياض يومك ، أو سواد ليلك ، وعاوده عند نشاطك ، وفراغ بالك ، فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة، إن كانت هناك طبيعة ، أو جريت من الصناعة على عرق ، فإن تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل ، ومن غير طول إهمال ، فالمنزلة الثالثة أن تتحول عن هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك ، وأخفها عليك ، فإنك لم تشـتـه ولم تنازع إليه إلا وبينكما نسب والشيء لا يحن إلا إلى ما يشاكله »[1] .

ذكر بشر ثلاث منازل للأديب حسب منزلـة أدبه ، ومكانه من الجودة أو الرداءة أو التوسط بين الجودة والرداءة ، ووضح خصائص الأدب الجيد في المنزلة الأولى للأديب ،

(١) حاذقاً : ماهراً ـ مطبوعا : مفطورا وهي ضد الصنعة ـ طبيعة : موهبة .

حيث يرتقي إلى الدرجات الرفيعة من البلاغة ، وذلك إذا تراشق الأسلوب عنده باللفظ الخفيف على اللسان ، وبالكلمة اللطيفة في الصياغة ، فتسيل عذوبة ، وتختال رشاقة ، ويحسبها القارىء فخمة عند النظر إليها ، فإذا بها تنساب إلى النفس سهلة عند التعرف عليها .

وذلك لأن المعاني ظاهرة للأبصار ، والأفكار واضحة للأفهام ، قريبة إلى أنفس العلماء والأدباء ، فيبلغ بها الأديب أعلى المنازل ، فتنحني امامه طرائق التعبير ، وتذوب على لسانه توعر الكلمات ، وتسهل لديه بيداء الأساليب ، فينسج من الأدب لونا واحداً ، يقع من نفوس الجميع موقعاً بليغاً ، لا يخفى على الدهماء ، ولا ينكره البلغاء .

فإن حرم الأديب المنزلة الأولى ، التي اجتمعت لها خصائص الأدب الرفيع من أول وهلة ، وأحسَّ بأن اللفظة قلقة في التعبير ، والكلمة ناشزة في الأسلوب ، والتراكيب تموج بالقلق والاضطراب ، وندَّت الفقرات عن مواقعها ونفرت العبارات من قرارها ، ووقعت القافية من البيت موقعا قلقاً ، وسارت إلى غير مركزها في القصيدة ، يكرهها الشاعر على اغتصاب المواقع في التصوير ، وتنزل من الأسلوب في غير موطنها الدقيق واللائق بها ، وغير ذلك من الصفات

الرديئة التي تنزل بالأدب عن منازل الحذق والمهارة ، والطبع والقريحة ، فيهوى بها إلى الصنعة والكلفة ، وتمجه الأذواق السليمة .

ومثل هذا الرجل الذي لم تأت إليه الصياغة طوعاً لأول وهلة ، قد لا يحرم من موهبة الأديب ، ولا من طبيعة القول البليغ ، الذي شابه شيء من صنعة المتأدبين ، مثل هذا المتأدب ، قد تتحرك فيه العاطفة الصادقة بعد فترة قصيرة ، فيستجيب له اللفظ الذي يتناسب مع المعنى ، وتخضع له التراكيب التي تتلاءم مع الغرض ، وإن واتته على مهل ، وطاوعته بعد عصيان فنزل أدبه إلى درجة التوسط بين الجيد والرديء .

فإن استعصى على الرجل هذا اللون الثاني من الأدب أثناء المحاولة بعد فترة قليلة من الزمن ، والذي لم يخل من الصنعة المهذبة ، فكان اللفظ قلقاً ، والكلمة ناشزة ، والقافية مضطربة ، والتراكيب تستعصي على المعاني ، وتتنافر مع الأغراض فيصير أدبه أدباً رديئاً ، يجرد صاحبه من الأدب ، وعليه حينئذ أن يترك الأدب ، ويتجه إلى صنعة أخرى تتناسب مع ميوله وغريزته ، وينزل عند حرفة أخرى

تتواءم مع طبعه ، وتلتقي مع مزاجه ، لأن لكل طبيعة بشرية صنعة تجيد العمل فيها ، ولكل فطرة إنسانية حرفة تنقاد لها، فنرى الأديب والشاعر ، والخطيب والناثر ، والتاجر والصانع ، والزارع والصائغ إلى غير ذلك من ألوان الصناعات .

ثم يتزاحم النقاد بعده متأثرين به في توضيح منازل الأديب ومراتب الأدب ودرجاته ، يقول أبو هلال العسكري : « إذا أردت أن تصنع كلاماً فأخطر معانيه ببالك وتنوق له كرائم اللفظ[1] ، واجعلها على ذكر منك ، ليقرب عليك تناولها ، ولا يتعبك طلبها ، فإذا مررت بلفظ حسن أخذت برقبته ، أو معنى بديع تعلقت بذيله . . . وإذا أردت أن تعمل شعراً فحضر المعاني التي تريد نظمها » الخ ما سبق ذكره.

ويرى الناقد ابن رشيق أن معاناة الشاعر في شعره أحياناً تؤدي إلى كد فكره ، وانصرافه إلى المعنى حتى يبلغ مراده ، ويضرب لذلك مثلاً من شعر الفرزدق قال :

فإني أنا الموت الذي هو ذاهب
بنفسك فانظر كيف أنت محاوله

---

(١) تنوق : تخير وانتق اللفظ

وحلف الفرزدق أن جريرا لا يغلبه فيه ، فكان جرير يتمرغ في الرمضاء حتى نقضه بقوله :

أنـا الدهـر يفني الموت والـدهر خـالد
فجئني بمثـل الـدهـر شيئـاً يـطاولـه

ثم يأتي محمد بن طباطبا [م ٣٢٢ هـ] ليفصل القول في هذا تفصيلاً قائماً على تجربته الشعرية الذاتية ، ومعاناة الأدب بنفسه ، ليقرر ان الأديب يمر بمرحلة التفكير وترتيب المعاني ، التي يريد نظمها ، ثم مرحلة الانتاج ليواخي بين المعاني بعضها مع بعض ، وبينها وبين ما يتلاءم معها من القوافي والأوزان في اتساق وترتيب ، بلا فجوة أو خلل ، ثم مرحلة الترتيب والتنسيق بين الأبيات متوخياً معانيها ، ثم المرحلة الرابعة وهي التهذيب والتثقيف كالذكر أو الحذف ، والتقديم والتأخير ، والصقل والتثقيف ، حتى يظهر النص في اجمل صورة ، يقول ابن طباطبا :

« إذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى [١] الذي

---

(١) مخض : قلب وتدبر .

يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرا ، وأعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه ، والقوافي التي توافقه والوزن الذي يسلس له القول عليه ، فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه أثبته ، وأعمل فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني على غير تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول فيه ، بل يعلق كل بيت يتفق له نظمه على تفاوت ما بينه وبين ما قبله ، فإذا أكملت له المعاني وكثرت الأبيات وفق بينها بأبيات تكون نظاما لها ، وسلكا جامعا لما تشتت منها ، ثم يتأمل ما قد أداه إليه طبعه ، ونتحته فكرته ، فيستقصي انتقاده ، ويرم ما وهى منه ، ويبدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقية ، وإن اتفقت له قافية قد شغلها في معنى من المعاني ، واتفق له معنى آخر مضاد للمعنى الأول ، وكانت تلك القافية أوقع في المعنى الثاني منها في المعنى الأول ، نقلها إلى المعنى المختار الذي هو أحسن ، وأبطل ذلك البيت ، أو نقض بعضه وطلب لمعناه قافية تشاكله ، ويكون كالنساج الحاذق الذي يقوف وشيه بأحسن التقويف ، ويسديه وينيره ، ولا يهلهل شيئاً منه فيشينه[1] ، وكالنقاش الرقيق

---

(١) يقوف : قوف الثوب صنع فيه خطوطاً بيضاء على الطول ـ والسدى من الثوب خلاف اللحمة وهو ما مد من خيوطه ـ وينيره : جعل له نيرا خلاف سداه ـ هلهل الثوب : نسجه سخيفاً

الذي يضع الأصباغ في أحسن تقاسيم نقشه ، ويشبع كل صبغ منها حتى يتضاعف حسنه في العيان ، وكناظم الجواهر الذي يؤلف بين النفيس منها والثمين الرائق ، ولا يشين عقوده بأن يفاوت بين جواهرها في نظمها وتنسيقها »[1] .

ويذكر بشر خصائص الأسلوب الجيد فيقول : « ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولاً قصداً ، وخفيفاً على اللسان سهلاً ، وكما خرج من ينبوعه ، ونجم عن معدنه وإياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ، ومن أراد معنى كريما فليلتمس له لفظاً كريماً ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما ، وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالاً منك قبل أن تلتمس إظهارهما وترتهن نفسك بملابستهما ، وقضاء حقهما »[2] .

** * * *

(١) عيار الشعر : ص ٥

(٢) البيان والتبيين : الجاحظ ١٫١٣٥ .

مقتضى الحال :

وهذه القضية من أبواب البلاغة التي اشتغل بها من بعده علماء البلاغة ، وأدخلوها في علم المعاني ، وهي من أهم قضايا نقد الأدب العربي ، ووضح بشر أن مقتضى الحال هو أساس علم البلاغة ، وبه يسمو الشعر والأدب قال : « ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين ، وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ، ولكل حالة من ذلك مقاماً ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات ، فإن كان الخطيب متكلماً ، تجنب[١] ألفاظ المتكلمين ، كما إنه إن عبر عن شيء من صناعة الكلام واصفاً ، أو مجيباً ، أو سائلاً ، كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين ، إذ كانوا لتلك العبارات أفهم ، وإلى تلك الألفاظ أميل ، وإليها أحن ، وبها أشغف ، ولأن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء ، وأبلغ من كثير من البلغاء ، وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك

---

(١) تجنب : التزم

المعاني ، وهم اشتقوا لها من كلام تلك الأسماء ، وهم أصطلحوا على تسميته ما لم يكن له في لغة العرب اسم ، فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف وقدوة لكل تابع »[1] .

يتناول بشر في هذه الفقرة أساساً من أسس الجودة ، وباباً من أبواب البلاغة الذي يهتم به الأديب في أدبه اهتماماً كبيراً وهو باب مقتضى الحال ، ويعد هذا الباب الأساس الأول في علم البلاغة ، إذ به يصح النص الأدبي ، وعلى الأديب أن يحدد المعنى الذي يخاطب به الآخرين ، سواء أكان هذا المعنى في اللغة أو الأدب أو البلاغة أو التوحيد أو غير ذلك ، ويتعرف على اجزائه ، ثم يحدد الطبقة من المستمعين ، لأن لكل طبقة طريقة في التعبير يحسنون فهمها ، فطريقة علماء الكلام تختلف عن أسلوب النحاة ، ثم يتعرف على أحوال المستمعين ، فتارة يكونون في حالة ينكرون فيها المعنى ، وتارة يجهلونه ، وتارة يشكون فيه ، ولكل حالة من هذه الحالات الثلاث أسلوب معين يعتمد على التوكيد أحياناً ، أو لا يعتمد ، ويضرب أمثلة كثيرة لطرائق التعبير في باب مقتضى الحال ، مثل مخاطبة المتكلمين من

---

(١) البيان والتبيين : الجاحظ ١/١٣٥ .

أهـل علم الكلام ، ومخـاطبة العـروضيين ، ومخـاطبـة النحويين ، ومخاطبة علماء الرياضة والحساب .

وعلماء البلاغة ينسبون هذا القول إلى مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، لارتباطه القوي بالبلاغة ، فكلام بشر هذا إن كان أساساً من أسس علم البلاغة ، لكنه مع ذلك قيمة من قيم النقد الأدبي ، لأنه وثيق الصلة بالتصوير الأدبي ، فالغرض من التصوير هو التأثير في النفس ، بحيث يسيطر على العقل والعاطفة والمشاعر وهذا التأثير للصورة لا يقوى إلا اذا اتفق مع الحالة التي يعبر عنها ، في المقام الذي يبرزه الأديب ويشخصه الشاعر المصور .

ولا يخلو عالم من علماء البلاغة بعد بشر إلا وقد تناول مقتضى الحال كما لا يخلو كتاب من كتب البلاغة إلا اشتمل على هذا الجانب .

* * * * *

النظم والتصوير الأدبي :

تنبه بشر بن المعتمر قبل غيره من النقاد إلى قضية النظم ، فهو لا يرتفع باللفظ وحده ، ولا بالمعنى وحده ، ولكن يقصدهما معاً ، ممهداً لنظرية النظم يقول : « إياك والتوعّر ، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ، ويشين ألفاظك » . فالتعقيد من سمات اللفظ والمعنى معاً ، وهو يفسد الصورة الأدبية ، ويخل بالتعبير ، ويفقد روح التأثير فيها . ويقول بعد ذلك : « ومن أراد معنى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما » .

فموطن الجمال عند بشر في العمل الأدبي يرجع إلى ارتباط اللفظ بالمعنى فلا بد للمعنى الشريف من لفظ شريف ، ويريد بذلك أن يفصح عن العلاقة بينهما ، فليست في اللفظ وحده ، ولا في المعنى وحده ، ولكن في العلاقة بينهما ، وهي محل الصورة الأدبية ، التي توضح المعنى ، وتسمو بالصياغة والتعبير ، وليسمها بشر علاقة ، أو اهتمام باللفظ والمعنى كما يشاء ، لمناسبة التسمية مع ذوق أدباء

عصره . فقد نشأ النقد الأدبي قبل أن يعرف مصطلحاته الحديثة .

وهذا الاتجاه قريب من مفهوم الصورة الأدبية ، التي تحددت معالمها فيما بعد ، بل أضاف لما سبق معالم جديدة في مفهومها ، منها التلاؤم بين اللفظ والمعنى ، وقوة العاطفة ، والوحدة الفنية ، وتلاؤم الصورة مع العاطفة والمقام والغرض التي ذكرت من أجله .

يقول بشر في مناسبة اللفظ للمعنى والتلاؤم بينهما :
ومن أراد معنى كريما فليلتمس له لفظاً كريماً ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف . . إلى قوله : إن يكون لفظك رشيقاً عَذباً ، وفخماً سهلاً ، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً وقريباً معروفاً[1] .

ويأتي الجاحظ بعد بشر ليرد الجمال والبلاغة إلى الألفاظ ، لأنها محصورة محدودة ، بينما المعاني عنده ممتدة مبسوطة ، لكنه بعد ذلك يربط بين اللفظ والمعنى فهو يجعل

---

(١) البيان والتبيين : الجاحظ ١,١٣٥

الشأن للصياغة ، والشعر ضرب من التصوير ، والصياغة والتصوير يرتبط فيها اللفظ بالمعنى يقول : « والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك ، فإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير[1] .

ويتفق أبو هلال العسكري مع الجاحظ في تأثرهما بصحيفة بشر بن المعتمر . ويرى ابن قتيبة أن القصيد يعلو ويهبط حسب قيمة اللفظ والمعنى فيه ، فقسمه إلى أربعة أضرب : ضرب حسن لفظه وجاد معناه . وضرب حسن لفظه وعلا فإذا فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى ، وضرب جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه ، وضرب تأخر معناه وتأخر لفظه[2] .

ويسير ابن طباطبا بما جاء به بشر بن المعتمر فيقول : « إذا أراد الشاعر بناء قصيدة ، فأحضر المعاني الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثراً ، أو أعد له مما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه ، والقوافي التي توافقه . . فإذا اتفق له

---

(١) الحيوان ٣, ٤٠

(٢) الشعر والشعراء : ٧

بيت يشاكل المعنى الذي يرومه ابتدأ وعمل فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني على غير تنسيق للشعر ، وترتيب لفنون القول فيه ، بل يعلق كل بيت يتفق له نظمه على ما بينه وبين ما قبله »(١) .

هذا هو العمل الفني في القصيدة الشعرية ، يحضر الشاعر المعاني ، وينتقي لها من الألفاظ والقالب الموسيقي ما يتناسب معها ،حتى يستقيم البيت من الشعر ، وهكذا بقية الأبيات ، فهو يربط بين اللفظ وإيقاعه وبين المعنى ، ويشير بذلك إلى قضية النظم التي تنبني عليها الصورة الأدبية .

ويهتم الآمدي (م ٣٧٠ هـ) باللفظ والمعنى في النظم والتصوير فيقول : « وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأني ، وقرب المأخذ ، واختيار الكلام ، ووضع الألفاظ في مواضعها ، وأن يورد المعنى اللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله .. والبلاغة إنما هي إصابة المعنى ، وإدراك الغرض بألفاظ سهلة عذبة مستعملة سليمة من التكلف ، لا تبلغ الهذر الزائد على قدر الحاجة .. وينبغي

---

(١) عيار الشعر : ٢٣ .

أن تعلم أن سوء التأليف ورديء اللفظ يذهب بطلاوة المعنى الدقيق ويفسده ويعميه حتى يحتاج مستمعه إلى تأمل . . وحسن التأليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاء وحسنا ورونقاً ، حتى كأنه أحدث فيه غرابة لم تكن وزيادة لم تعهد »[1] .

ويكاد يتفق علي بن عبد العزيز الجرجاني مع الآمدي في فهمه للنظم والصورة الأدبية ، وتأثرهما بالناقد الأدبي بشر ابن المعتمر .

ويعقد ابن رشيق باب اللفظ والمعنى ، ليربط بينهما كما ربط بشر بن المعتمر ، يقول ابن رشيق : أن الجمال لا يكون إلا في النظم ، لا في اللفظ وحده ولا في المعنى وحده ، ويترتب على ذلك أن تكون الصورة الشعرية في العلاقة التي تتم بين الألفاظ وتكشف عن المعنى[2] .

وهذا ما قرره عبد القاهر الجرجاني (م ٤٧١ هـ) واكتمل على يديه ، حيث انتهى إليه الحديث عن النظم والصورة الأدبية ، بعد أن بدأه بشر بن المعتمر ، ليبلغ عبد

---

(١) الموازنة بين ابي تمام والبحتري ١٧٣ .

(٢) العمدة : ١٫١٢٤ .

القاهر فيه الغاية ، ويرسي قواعد النظم ومفهومه ويحدد معالم التصوير الأدبي؛ يقول عبد القاهر : « أن الألفاظ التي هي أوضاع اللغة ، لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض ، فيعرف فيما بينها فوائد ، وهذا علم شريف ، وأصل عظيم »[1] .

ويوضح هذا أكثر فيقول : « وأعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك ، ألا نظم في الكلم ولا ترتيب ، حتى يعلق بعضها ببعض ، ويبني بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب تلك . . وإذا كان كذلك فعلينا أن ننظر إلى التعليق فيها والبناء ، وجعل الواحدة منها يسبب من صاحبتها ما معناه وما محصوله »[2] ويقول : « واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله . . إنك ترى الرجل قد تهدى في الاصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج إلى ضرب من التخير والتدبر في أنفس الاصباغ ، وفي مواقعها ومقاديرها ، وكيفية مزجها لها وترتيبه إياها إلى ما لم يهتد إليه صاحبه ، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب ،

(١) دلائل الاعجاز : ٤٧٣ تحقيق د / محمد عبد المنعم خفاجي .
(٢) دلائل الاعجاز : ٩٧

وصورته أغرب ، وكذلك حال الشاعر والشاعر في توخيهما معاني النحو ووجوهه التي علمت أنها محصول النظم .. وسبيل الكلام هو سبيل الصياغة والتصـوير ، وأن سبيـل المعنى الذي يعبر عنه ، سبيل الشيء الذي يقع عليه التصوير والصوغ كالفضة والذهب ، يصاغ منهما خاتم أو سوار ، فكما أن محالا إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل ورداءته ، أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة ، أو الذهب الذي وقع عليه العمل والصنع ، كذلك محال إذا أنت تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه ، وكما أننا لو فضلنا خاتما على خاتم ، بأن يكون فضة هذا أجود أو فضته أنفس ، لم يكن ذلك تفضيلاً له من حيث هو خاتم ، كذلك ينبغي إذا فضلنا بيتا على بيت من أجل معناه لا يكون تفضيلاً له من حيث هو شعر وكلام ، وهذا قاطع فاعرفه »[1] .

وبهـذا يكون عبـد القاهـر وضّح نـظريـة النـظم ، والعلاقات التي ينبني عليها التصوير الأدبي ، فأعطى للفظ حقه ، وللمعنى حقه ، والصورة تأتي من العلاقة بينهما معاً ،

---

(١) المرجع السابق ١١٨ ، ١٢٣ ، ٢٥٥ .

ويرجع أساس الجمال إلى النظم والصياغة والتصوير ، ولا بد لكل كلمة في النظم أو الصورة أن تأخذ مكانها بين أخواتها على أساس توخي معاني النحو حتى تحقق الوحدة الفنية في النص الأدبي .

وتحدث بشر أيضاً عن الوحدة الفنية : أو مناسبة الكلمة لموقعها يقول : فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ، ولا تسنح لك عند أول نظرك ، وفي أول تكلفك ، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ، ولم تعد إلى قرارها ، إلى قوله : أو جريت من الصناعة على عرق .

فصياغة الشعر ليست سهلة أو ميسورة ، لأن تصوير المعنى يحتاج إلى دقة وبراعة ، وعلى الشاعر بعد اختيار الألفاظ والمعاني الكريمتين والشريفتين ، أن يختار لكل كلمة موقعها من الصورة ، لتستقر في مكانها المخصوص لها ، وكذلك القافية لا بد أن تقع في نصابها وتتوازن مع نظائرها ، وتتشاكل مع أخواتها .

وإذا لم يتيسر للشاعر التناسب في الصورة الأدبية والوحدة الفنية بين الألفاظ فيها ، بحيث لا توافق الكلمة

أختها ، فتعبر احداها عن الصبابة والثانية عن الفخر ، فيصير النسج بذلك مهلهلاً ، والتماسك ضعيفاً ، وعلى الشاعر حينئذ خوفاً من الخلط والاضطراب أن يترك العمل يوماً وليلة ، حتى يستطيع أن يحكم النسج ، ويضع كلا في مكانه المناسب ، فتتواءم كل كلمة مع أختها ، ويتم التلاحم بين أجزاء الصورة الأدبية ، وتتحقق الوحدة الفنية فيها .

وليسمها بشر تناسباً بين الكلمات ، أو توافقاً بين المعاني فلا يضر ذلك في عناصر التصوير حين يسميها النقد الحديث الوحدة الفنية وغيرها مما يدل على التناسب بين الكلمات في التركيب ، والتلاؤم بين الأجزاء في التصوير .

وبهذا يكون أبو سهل بشر بن المعتمر أول ناقد أدبي سجل هذه القضايا النقدية ، والقيم الجمالية في النقد العربي القديم ، وإن لم يفصل القول ، كما هو مألوف في التطور التاريخي لنشأة العلوم ، حيث يبدأ رويداً رويداً ، ثم تأخذ في التكامل والنضوج على أيدي النقاد الذين جاءوا من بعده كما وضحت ذلك .

وهذه المنزلة الرائدة في النقد لبشر ، لا تغض من

مكانة ابن سلام الجمحي لانهما كانا يعيشان في عصر واحد وفي جو علمي واحد ، مع ان النقاد جعلوا الجمحي في كتابه « طبقات الشعراء » مؤرخا للأدب وإن كانت له نظرات نقدية عميقة ، ولا يغض أيضاً من نظرات أبي تمام وخاصة في وصيته لتلميذه البحتري ، لأنهما أيضاً كانا معاً في عصر واحد .

المصادر والمراجع

١ ـ الحيوان : الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون .

٢ ـ البيان والتبيين : الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون .

٣ ـ طبقات فحول الشعراء : ابن سلام الجمحي .

٤ ـ الشعر والشعراء : ابن قتيبة .

٥ ـ عيار الشعر : ابن طباطبا تحقيق د/ محمد زعلول سلام والحاجري

٦ ـ الصناعتين : ابو هلال العسكري .

٧ ـ شرح ديوان الحماسة : المرزوقي تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون .

٨ ـ الأمالي : المرتضى .

٩ ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه : علي بن عبد العزيز الجرجـاني .

١٠ ـ الموازنة بين أبي تمام والبحتري : الآمدي مطبعـة صبيح .

١١ ـ اسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني مطبعة الحلبي .

١٢ ـ دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجي

١٣ ـ العمدة : ابن رشيق تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

١٤ ـ المثل السائر : ابن الأثير مطبعة البهية بمصر .

١٥ ـ النقد المنهجي عند العرب : د/ محمد مندور .

١٦ ـ تاريخ الأدب العربي : د/ شوقي ضيف .

١٧ ـ أسس النقد الأدبي عند العرب : د/ أحمد أحمـد بدوي .

١٨ ـ في النقد الأدبي : د/ محمد عبد المنعم خفاجي .

١٩ ـ مذاهب النقد وقضاياه : د / عبد الرحمن عثمان

٢٠ ـ دراسات في الأدب العربي الحديث ومذاهبه : د/ محمد عبد المنعم خفاجي .

٢١ ـ فن المقالة :د / محمد يوسف نجم .
٢٢ ـ أدب المقالة الصحفية في مصر : د/ عبد اللطيف حمزة .
٢٣ ـ فنون الأدب : / ترجمة د/ زكي نجيب محمود .
٢٤ ـ البناء الفني للصورة الأدبية :د / علي علي صبح .
٢٥ ـ عبقرية ابن الرومي : د/ علي علي صبح .